# مجلة المجمع العلمي العراقي

الجزء الاول ـ المجلد التاسع والثلاثون

بغداد

شعبان ١٤٠٨هـ ـ آذار ١٩٨٨م

# عرض الكتب

# نحو المعاني

الدكتور أحمد مطلوب

عضو المجمع

عرفت الدكتور احمد عبدالستار الجواري استاذاً ومؤلفا فقد درست عليه مادتي : منهج البحث الادبي ، والكتاب القديم قبل اكثر من ثلاثين عاما وكان في المادتين بحرا زخرا ذا منهج علمي في البحث وذوق رفيع في الادب ، وعلم غزير في اللغة والنحو . وكان اول كتاب اصدره « الحب العذري — نشأته وتطوره » ثم «الشعر في بغداد حتى نهاية القرن الثالث الهجري » وكتبت عنه مقالة في جريدة اليقظة عام ١٩٥٦ م . ومال الى دراسة اللغة والنحو بعد ان وجد المنهج الكلامي يطغى على تعليم العربية فأصدر في عام ١٣٨٢ هـ — ١٩٦٢م. كتاب « نحو التيسير » وكتبت عنه مقالة في مجلة « المعلم الجديد » سنة ١٩٦٣ وتلقى ملاحظاتي برحابة صدر وقبول حسن وهو الاستاذ الكبير . وشرفني وأنا في ديار الغربة بكتابيه « نحو القرآن » و « نحو الفعل » اللذين اصدرهما المجمع العلمي العراقي عام ١٣٩٤ هـ — ١٩٧٤ م فوجدت فيهما علما غزيرا ، ونظرات ثاقبة تدل على غوصه على المعاني الدقيقة . ووقوفه عند الاساليب البليغة . وأخذه بأساليب البحث العلمي ، والاعتماد على القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، والكلام البليغ في استخلاص القواعد والاصول . وسار في سبيله التي رأى فيها اصلاح الدراسات اللغوية وإعادة الحياة الى النحو الذي

سلبته الكتب المتأخرة رونقه ورواءه فأصدر له المجمع العلمي العراقي عام ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م . كتابه الجديد « نحو المعاني » الذي قال عنه : « هذا بحث دار في الذهن وشغل به الفكر منذ امد بعيد وظل يتهيّبه ، ويرتدّ عن اقتحام ميدانه ، ويعرض لاطراف منه ، ويتحامى عن خوض عبابه زمنا طويلا » وحدّد هدفه بقوله : « وليس مما يقصد اليه في هذه الاسطر تنويه بجهد او ادلال بمجهود . وانما يراد بها لفت انظار الباحثين الى خطورة المسائل التي عرض لها هذا البحث المتواضع ، والفزع الى انصاف القارىء الباحث في اغتفار الزلة واحتمال السقطة والهفوة ، والطماح الى النقد الذي يُقوِّم المعوجّ ، ويسدد الناشز ، ويعين على درك الحقيقة وقصد الصواب » .

ويقوم الكتاب على اساس اغفلته كتب النحو المتأخرة وهو العناية بمعاني النحو وما تؤديه الصيغ من معانٍ يقصدها المتحدث او الكاتب ، وقد اوضح الدكتور الجواري هذا الاساس في مقدمة كتابه فقال :

« ان في انتزاع معاني النحو من النحو قضاءً على النحو بالجمود والتحجر واقتطاعا لشطر مهم منه هو الذي يبعث في قواعده رواء وحيوية وقدرة على ممازجة الافكار والاذواق والمشاعر . وان في تجريد معاني النحو واستقلالها بعلم سمي « علم المعاني » ما جعل تلك المعاني تعاني ما تعانيه فنون البلاغة من خلخلة في كيانها وشيء غير قليل من الفجاجة وهلهلة النسج احيانا حتى جعل ذلك بعض مؤرخي علوم العربية يصفون البلاغة بأنها العلم الذي لم ينضج ولم يحترق .

ان علوم العربية بمجموعها أشبه بجسم الانسان ولا يجوز ان تقطع اجزاؤه فتدرس مستقلا بعضها عن بعض ومنفصلا بعضها عن بعض اذ دم الحياة الذي يغذيها ويحييها ويبعث فيها النماء مصدره واحد ووظيفته تكاد تكون واحدة في كل جزء . اما التجزئة اذا قضى بها البحث العلمي وضروراته

فلابد ان تراعي الصلة بين الاجزاء وان تبقي النظرة الشاملة الى علاقات الاجزاء بعضها ببعض نصب عين الباحث . وقد تبين بعد معاودة النظر في مسائل علم المعاني انها بغير اسسها النحوية مسائل قلقة لانكاد تثبت او تستقر ، وانما يعيدها الى موضعها من علم العربية أن تعود الى أصولها في النحو فيكون ذلك خيراً لها وللنحو على العموم فتتضح صورها . وتستبين معالمها ، ويتلاقى في درسها الذوق والادراك ، ويكون فقه العربية مجمعا لاداة درس العربية فنا للتعبير قائما على اساس متين » . وهذا ما دعا اليه عبدالقاهر الجرجاني حينما وجد الناس يزهدون في دراسة النحو والوقوف على معانيه ، قال : « وأما النحو فظنته الطائفة القاصرة ضربا من التكلف ، وبابا من التعسف ، وشيئا لا يستند الى أصل ولا يعتمد على عقل ، وأن مازاد منه على معرفة الرفع والنصب وما يتصل بذلك مما تجده في المبادىء هو فضل لا يجدي نفعا ولا تحصل منه على فائدة . وضربوا له المثل بالملح — كما عرفت — الى أشباه هذه الظنون في القبيلين . وآراء لو علموا مغبتها وما تعود اليه لتعوذوا بالله منها ولأنفسهم من الرضا بها . ذلك لانهم بايثارهم الجهل بذلك على العلم في معنى الصادّ عن سبيل الله . والمبتغي اطفاء نور الله تعالى » . وكان كتابه « دلائل الاعجار » من اروع كتب التراث التي التفتت الى معاني النحو وتبيان رسومها ومعالمها . وهو ما أشار اليه الاستاذ ابراهيم مصطفى في كتابه « إحياء النحو » ولم يقف عنده طويلا . وما أشرتُ اليه في بعض دراساتي ولاسيما مقالة « رأي في البلاغة العربية » التي نشرت سنة ١٩٦٢ م في الجـــزء الاول من « مجلة الكتاب» التي كانت جمعية المؤلفين والكتاب العراقيين تصدرها في بغداد . وكتاب « نحو المعاني » خطوة كبيرة في هذا المجال لانه فصّل القول فيما أشار اليه بعض المعاصرين ووقف عنده القدماء كعبدالقاهر الجرجاني الذي اهتم بالنظم وقال : إنه توخّي معاني النحو . وقد جاء في مقدمة وتمهيد وبابين ، اما المقدمة فهي ايضاح لاهمية الموضوع وخطورته ، واما التمهيد فهو في مصطلح

« نحو المعاني » الذي لم يستعمل تلاعباً بالالفاظ او تفنناً في التعبير وانما جاء احياءً لمصطلح « معاني النحو » وتعبيراً عما يسعى اليه المخلصون في دراساتهم اللغوية . واما الباب الاول فهو النحو ومعانيه ، وقد ضم اربعة فصول هي : النحو ونظم الكلام ، ونظم الكلام ، ومعاني الاعراب ، ومعنى البناء ، وهذه الفصول تقرير للاسس التي انطلق منها المؤلف . وأما الباب الثاني فهو صور التركيب وأحوال الاسناد ، وقد جاء في سبعة فصول هي : الحذف والذكر ، وحذف الحرف ، والتقديم والتأخير ، والفصل والوصل ، وأحوال الاسناد وضروب الجملة ، والجملة الاخبارية والجملة الانشائية والجملة الشرطية ، والانشاء وأقسامه ، والايجاز والاطناب والمساواة . وهذه الفصول هي جوهر القضية التي عني بها الدكتور الجواري وهي ما أطلق عليه عبدالقاهر اسم « معاني النحو » وسماه البلاغيون المتأخرون كالسكاكي والقزويني وشراح التلخيص « علم المعاني » ، إنّ إعادة هذه الفصول الى النحو تكسبه رواءً وتمدّه بحياة افتقدها يوم اهتم المتأخرون بالاعراب والبناء ، والعلل الثواني والثوالث ، وأهملوا ما وراء ذلك من معانٍ يقصدها المتحدث او الكتاب . لقد حوت كتب النحو والبلاغة كثيرا من جزئيات هذه الفصول ولكنها ضاعت في غمرة التقعيد والتعقيد ، والاهتمام بالاعراب والبناء ، وعلى الرغم من أن كتاب « دلائل الاعجاز » طبع منذ مطلع القرن العشرين بعناية الامام محمد عبده فأنه لم يجد من ينتفع به كثيرا ويعيد الحياة الى الدرس النحوي إلاّ ما كان من اشارات عابرة لا ترسم منهجا ولا تعرض مادة ولا تحدد هدفا .

وشاء الله أن ينهض بهذه المهمة استاذ جليل أحب لغته فسعى الى إعادة اشراقتها الاولى وإضاءة مناهج بحثها بما يرفدها ويجلوها في احسن صورة واروع بيان . إنّ كتاب «نحو المعاني» لون من ألوان الدرس اللغوي الحديث استند الى القديم واستخلص أنفع مافيه واعتمد على القرآن الكريم وأخذ من الكلام البليغ أبدع ما فيه . وقد استطاع مؤلفه ان يحقق ما دعا اليه في كتبه السابقة

من عناية بالنحو والاهتمام بالاساليب ووقف على معاني النحو التي هي اهم ما يسعى اليه الكلام الرائع البليغ ، وفي الكتاب ايضاح لآداء السلف الصالح ومناقشة لها ، وفيه آراء للمؤلف لم ينطق بها الا بعد ممارسة طويلة للتدريس ، ومراجعة واسعة للتراث ، وتذوق رفيع للنصوص ، وادراك عميق للمعاني وبذلك جاء « نحو المعاني » وثيقة صادقة تبشر بالخير العميم للغة الكريمة التي حفظها كتاب الله الخالد وصانتها الامة قرونا . وليس من السهل عرض كل ما في الكتاب من آراء ترفد الدرس النحوي وتعيد الى اللغة رواءها . ومن ذلك رأيه في نظم الكلام الذي ينبغي ان يقوم على رعاية معاني النحو،ومعنى الابتداء والاخبار ، ومعاني النحو ومقتضى الحال ، ومعاني الاعراب ، قال : « الاعراب ومعاني الاعراب شطر معاني النحو بل هو شطرها الاكبر وهو الذي غلب على النحو او غلب عليه واستأثر بأهم ابوابه وفصوله ، ذلك لانه هو الذي يكشف عن مواقع الالفاظ في التراكيب ويدل عليها دلالة محسوسة مشهودة في الاعم الاغلب ، أما الشطر الاخر من معاني النحو فهو الذي خرج من أبواب النحو او اخرج منها ، وهو جدير بأن يرد الى أصله وأن يتبوأ مكانه من ذلك الاصل ، ذلك ما يعرف بأحوال الاسناد وصور التركيب او صور التراكيب » . ومن آرائه اهتمامه بالتذوق الذي يتأبى على التعليل بالقواعد المقررة القائمة على المنطق ، وهو ما أشار اليه عبدالقاهر الجرجاني في « دلائل الاعجاز » عند كلامه على الحذف فقال : « هو باب دقيق المسلك ، لطيف المأخذ ، عجيب الامر ، شبيه بالسحر ، فأنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الافادة ازيد للافادة ، وتجدك أنطق ما تكون اذا لم تنطق ، وأتم ماتكون بيانا اذا لم تبن . وهذه جملة قد تنكرها حتى تخبر وتدفعها حتى تنظر » . ومن آرائه القول في الحذف في التنازع وحذف « أن» المصدرية ، والفصل والوصل ، وأقسام الجملة ، والاهتمام بجملة الشرط التي « تستحق أن تعد قسماً قائما بذاته بين الجمل ، لان في طبيعة صيغتها وفي

أداء معناها ما يميزها عن جملتي الخبر والانشاء ، وعن الجملتين الاسمية والفعلية كذلك . وهي في اللغات الحديثة صيغة مستقلة يصاغ لها الفعل على هيئة معنية ، وهي تنفرد بأحكام خاصة تختلف بها عن صيغ الازمنة وفروعها وعن صيغة الطلب » . ومن ذلك القول في أقسام الخبر وتسمية الجملة الخبرية اخبارية لتقابل الجملة الانشائية ، والمجاز العقلي الذي « تناوله البلاغيون تناولاً ينأى به عن فنية التعبير وتذوق الاسلوب البليغ ، وأقحموا في تعريفه وبيان حقيقته امورا تتصل بالاعتقاد والعقيدة لاصلة لها قريبة بما يريده المتكلم او يرمي تقريره » . ومن ذلك الفرق بين وجهي القصر ومعنييهما ، والتعجب الذي هو استفهام خرج عن معناه الاصلي ، والالتفات الذي عده البلاغيون المتأخرون من فنون البديع وهم ليسوا في ذلك على صواب ، وقاعدة « متعارف الاوساط » التي وضعها السكاكي لقياس الايجاز والاطناب ، والمساواة التي لا تعد من الكلام البليغ لان المراد بها « لايزيد على قضاء حاجة وسد خلل ، ولس هو مما يتوسل بالوسائل الفنية التي تجعله ذا تأثير بالغ فيمن يلقى اليه » .

وليست هذه الاراء كل ما في الكتاب فهناك الكثير مما جاء به المؤلف معززاً بكلام الله تعالى وكلام العرب البلغاء ، وهذا يدل على رؤية دقيقة ، وفحص دائم لكتب التراث ، وتأمل عميق فيها ، ولولا ذلك لجاء الكتاب كغيره عرضاً لما استقر ، أو تلخيصاً لما شاع . ومن هنا تأتي اهميته في هذه المرحلة التي تنادى فيها المخلصون الى العناية باللغة العربية ، واصدار التشريعات للحفاظ عليها وتطويرها لتستوعب متطلبات الحياة في هذا العصر الذي كثرت فيه المعارف والعلوم وتشعبت ، وظهرت دعوات الى تطبيق الاراء الغريبة او اهمال قواعد اللغة العربية واصولها وتجنب الخوض في خصائصها ومعاني تراكيبها . وقد يجد الباحث في كتاب « نحو المعاني » ما يدعو الى التأمل او المناقشة ، وهذه ميزة الكتاب الجيد ، فهو عرض وتوجيه وإثارة ، ولم تفت المؤلف هذه الاهداف فقال في الخاتمة : « ان الذي قصد اليه هذا البحث

ووجّه اليه النظر ان علم العربية ــ النحو ــ ليس محض اشكال ومظاهر وعلامات يعرف بها معنى الكلام في أبسط صورة ، وأقرب هيئة وأدنى منال ، وانما لعلم العربية فوق تلك العلامات وقواعدها طريقة في اداء المعنى واضحا مؤثرا مفيدا الفائدة التي يحسن السكوت عليها كما قال بذلك علماء العربية ، الفائدة بكل ما يقصد اليه في التعبير من افادة واشارة وامتاع » . وقال : « ان البحث في هذا المجال قد زاد في قناعة الباحث ان علوم البلاغة لم تبلغ من النضج ما بلغته علوم العربية الاخرى ولاسيما النحو ، ولذلك فهي جديرة خليقة بأن تخدم مزيدا من الخدمة ، خدمة اساسها الاستناد الى قواعد اللغة بحيث يقام بناؤها على اساس متين راسخ ثم يكون الذوق الادبي والحس الفني الذي يستمد مادته من تدارس الكلام البليغ ، وأساليبه البديعة هو المادة التي تقام عليها قواعد علوم البلاغة . وان من اهم ما يمكن أن يستثمر من مثل هذا البحث ان قضايا النقد الادبي ينبغي ان توصل بعلوم البلاغة من حيث دراسة الاساليب وتنوعها وانسجامها مع الموضوعات والافكار في الوانها وطرق ادائها والتعبير عنهـــا . ومن حيث أثرها في نفوس من يتلقون النتـاج الادبي ويتذوقونه . وحينئذ لا يعود النقد الادبي في جملة قضاياه كلاما كقبض الريح لا يستقر ولا يتماسك ، او اقتباسا من آداب الامم الاخرى وان يكن الاتصال بها مما ينبغي أن لا يغفل جانبه او تهمل العناية به ولكن على شرط أن تكون الخصائص الاصيلة هي موضع النظر ومحل العناية والاهتمام » . وما أصدق هذا الكلام فهو تشخيص لحالة النقد الادبي في هـــذه الايام . اذ أصبح كلاما لا يستند الى اساس من اللغة العربية وخصائصها . ولا الى تحليل يكشف مزايا النص ويقربه الى المتلقين . وعلة ذلك ابتعاد النقاد عن اصول اللغة العربية وخصائصها وأساليبها . واهمال التحليل اللغوي المتمثل في معاني النحو التي اهتم بها الاوائل . ولعـل صـــدور كتاب « نحو المعاني » يدفع النقاد الى الأخذ بأصول اللغة العربية . ودراسة النص دراسة تحليلية تستمد أصولها من خصائص العربية

ومما بذل القدماء من جهد في ابراز خصائصها وأساليبها الرائعة ، وما أظهر المعاصرون من قدراتها بعد أن قتلوا القديم درسا وعرفوا ما لدى الغرب من مناهج ، وفي ذلك بناء لنقد عربي السمات ، يقرأه العربي فيقول هذا ما أريده ، ويطلع عليه الاجنبي فلا يقول : « هذه بضاعتنا ردت الينا » . وصفوة القول : ان صدور كتاب « نحو المعاني » في هذه الايام عودة الى نبع التراث الصافي ، ودعوة الى احياء الدرس النحوي ، وتجديد لطرائق بحثه في ضوء خصائص اللغة العربية وما استجد في عالم البحث اللغوي الحديث .